التوجيه البلاغي للآيات المشتبهات عند السيوطي بين (الإتقان) و(قطف الأزهار) عرض ومناقشة

د. عطا الله بن جضعان بن سمير العنزي[1]

(قدم للنشر في ٧/ ٦/ ١٤٤١هـ؛ وقبل للنشر في٦/ ٧/ ١٤٤١هـ)

المستخلص: هذا البحث يبين جهود السيوطي البلاغية في موضوع الآيات المشتبهات، ويدرس منهجه، وتعليقاته، وعلاقته بمن قبله من العلماء، وكيف استفاد من مؤلفاتهم، خصوصاً في عدم وجود دراسة خاصة تهتم بمنهج السيوطي في توجيه الآيات المشتبهات، وتدرس تعليلاته، وتناقش تعليقاته وأقواله، وقد اتخذ البحث المنهج التحليلي منهجاً له، **ومن أهم النتائج في هذا البحث**:

يعد السيوطي من أهم العلماء الذين تحدثوا عن الآيات المشتبهات، تنظيراً وتطبيقاً، حيث يجمع في توجيهه البلاغي للآيات المشتبهات بين النقل عن العلماء السابقين له، ومناقشته لهم، وبين تعليقه على آرائهم، وانفراده بأسرار لم يلمحها من قبله، كما خصص السيوطي كتابه (قطف الأزهار) في إبراز الفنون البلاغية كلها، حيث يكشف عن إعجازها، ويجليها تجلية واضحة، فلا يكاد يترك في كتابه آية فيها ملمح بياني، أو فن بديعي، إلا وأشار إليه، **ومن أهم توصيات البحث**:

– جهود السيوطي البلاغية، وانفراداته البيانية، متناثرة في كتبه المتعددة، وبحاجة للكشف عنها، كما أن تفسير (قطف الأزهار في كشف الأسرار) مليء بالأسرار البلاغية، والتعليقات البيانية، وحبذا لو التفت الباحثون إليه.

الكلمات المفتاحية: التوجيه، البلاغة، الآيات، المشتبهات، السيوطي.

❁❁❁❁❁

(١) الأستاذ المساعد في البلاغة والنقد، كلية العلوم والآداب برفحاء – جامعة الحدود الشمالية.
البريد الإلكتروني: DR.ATALLAH2@GMAIL.COM.

Rhetorical Guidance of Ambiguous Verses in Al-Suyuti's "Al-Itqan" and "Qatf Al-Azhar": Presentation and Discussion

Dr. Atallah bin Jadhaan bin Samir Al-Anzi

(Received: 01/03/2020, Accepted: 01/02/2020)

Abstract: This research highlights the rhetorical efforts of Al-Suyuti in the subject of ambiguous verses, examining his methodology, comments, and relationships with scholars before him. It explores how he benefited from their works, especially considering the absence of a dedicated study on Al-Suyuti's methodology in directing ambiguous verses. The research adopts an analytical approach, and among its most important findings are:

- Al-Suyuti is one of the most significant scholars who discussed ambiguous verses theoretically and practically. In his rhetorical guidance of ambiguous verses, he combines transmitting the knowledge of previous scholars, engaging in discussions with them, commenting on their opinions, and presenting insights not hinted at before him.
- Al-Suyuti dedicated his book "Qatf Al-Azhar" to highlight all rhetorical arts, revealing their eloquence and making them clear. He leaves almost no verse without a rhetorical or eloquent touch, indicating his mastery of the subject.
- The study recommends further exploration of Al-Suyuti's rhetorical efforts and his unique contributions dispersed across his various works. Additionally, it suggests paying attention to his commentary on "Qatf Al-Azhar," which is rich in rhetorical secrets and expressive comments.

Keywords: Rhetorical Guidance, Eloquence, Verses, Ambiguous, Al-Suyuti.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وقد يسّر لهذا الكتاب العظيم علماء أجلاء، اهتموا به، واعتنوا بعلومه، وأبرزوا موضوعاته، ومن هذه الموضوعات والعلوم، موضوع التشابه اللفظي بين آياته، والفرق بينها.

ومن هؤلاء العلماء: السيوطي (ت٩١١هـ)، أحد علماء القرن التاسع الهجري، فقد برز في العديد من العلوم، ومنها علوم القرآن وتفسيره، فله نصيب وافر من التأليف فيها، ومن أهم كتبه: (الإتقان في علوم القرآن) و(معترك الأقران في إعجاز القرآن)، و(التحبير في علم التفسير)، و(قطف الأزهار في كشف الأسرار)، وقد وجدتُ في كتب السيوطي آراء بلاغية، وتوجيهات بيانية تعلل الألفاظ المتشابة، وتكشف عن أسرارها، وقد سمى هذا الموضوع بـ(الآيات المشتبهات)، وذلك في كتابيه (الإتقان)، و(معترك الأقران)، ولهذا آثرت هذه التسمية، واخترت أن أعنون هذا البحث بها.

مشكلة البحث:

يهدف البحث إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

– ما الذي أضافه السيوطي لهذا العلم؟ وهل استفاد ممن سبقه من العلماء في موضوع الآيات المشتبهات؟ وهل كانت له آراء مغايرة لآراء من سبقه؟ وهل انفرد بشواهد وتعليلات لم يتطرق لها من قبله من العلماء؟

حدود البحث:

وحدود هذا البحث محصورة في الشواهد التي ذكرها السيوطي في كتابين من كتبه التي تحدث فيها عن الآيات المشتبهات، وهي: (الإتقان في علوم القرآن)، و(قطف الأزهار في كشف الأسرار)، وعرض هذه الشواهد ومناقشتها، وبيان جهوده في كشف أسرارها، وهل هي من آرائه، أم من نقولاته؟ وقد اخترتُ من الشواهد ما ورد في كتاب (الإتقان) و(قطف الأزهار)؛ نظراً لمحدودية صفحات البحث، ولأن (الإتقان) أوسع كتب السيوطي حديثاً عن الآيات المشتبهات، ولأن ما ورد من شواهد في كتابي (معترك الأقران)، و(التحبير) مكرر في الإتقان، ما عدا نزر يسير من الشواهد لا تتجاوز الخمسة في كل كتاب، ثم اخترت من شواهد (قطف الأزهار) ما لم يذكره في كتبه الثلاثة السابقة، وهي على نوعين: شواهد لم يصرح بنقل تعليلها عن غيره، وشواهد نسب توجيهها لنفسه، فناقشت هذين النوعين، وهل هي من انفراداته؟ أم من نقولاته؟ واستعرضت هذه الشواهد، حسب ذكرها وترتيبها في كل كتاب.

أهداف البحث:

ومن أهم أهداف هذا البحث: تسليط الضوء على جهود السيوطي البلاغية في موضوع الآيات المشتبهات، ودراسة منهجه، وتعليقاته، وعلاقته بمن قبله من العلماء، ممن ألفوا في هذا الموضوع، خصوصاً في عدم وجود دراسة تهتم بمنهجه في توجيه الآيات المشتبهات، فتدرس تعليلاته، وتناقش تعليقاته وأقواله.

منهج البحث:

اتبعت في بحثي هذا المنهج التحليلي، فتناولت الآيات محل الدراسة والبحث، وبينت معناها، ومحل التشابه بين ألفاظها، ثم تطرقت لرأي السيوطي في تعليل التشابه فيها، ثم تتبعت رأي العلماء السابقين للسيوطي، وما مدى استفادته منهم.

الدراسات السابقة:

حسب بحثي المتواضع لم أجد دراسة سابقة، أو بحثاً علمياً متكاملاً يتكلم عن جهود السيوطي، وتوجيهاته البلاغية للآيات المشتبهات، ويسلط الضوء عليها، إلا أنّ هناك دراسات كثيرة تتحدث عن موضوع المتشابه اللفظي عموماً، وقد وجدت عدة دراسات تهتم بالمتشابه اللفظي، من أهمها:

(١) **رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى بعنوان:** "المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية" للدكتور: صالح بن عبدالله الشثري، وقد قام مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بطباعة هذه الرسالة، عام ١٤٢٥هـ، وقامت هذه الرسالة على دراسة خمسة كتب، وهي:

١. (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي.
٢. (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني.
٣. (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي.
٤. (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لابن جماعة.
٥. (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) لأبي يحيى الأنصاري.

– وبحثي هذا يختلف عن هذا الكتاب بأنه يتحدث عن السيوطي، وتوجيهاته البلاغية في كتبه، وهذا لم يتطرق له الدكتور صالح الشثري في كتابه.

(٢) **كتاب (من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن القرآن الكريم)** للدكتور: محمد بن علي الصامل، نشرته دار أشبيليا عام ١٤٢٢هـ، وقد ناقش فيه د. الصامل عشر مسائل للآيات المتشابهات في القرآن.

(٣) **رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى بعنوان:** (بلاغة المتشابه اللفظي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان) للدكتورة مريم بنت عبدالله القرشي، وقد حصرت دراستها في جمع أقوال أبي حيان في الآيات المتشابهة من تفسير البحر المحيط.

والفرق واضح بين بحثي، والأبحاث الأخرى، فبحثي يتناول عالماً واحدًا، هو السيوطي، ويدرس آراءه البلاغية في كتبه التي تحدث فيها عن الآيات المشتبهات.

وقد بدأت هذا البحث بتمهيد، فيه نبذة عن كتابي السيوطي: (الإتقان في علوم القرآن)، و(قطف الأزهار في كشف الأسرار). **ثم قسمت البحث إلى مبحثين:**

المبحث الأول: الآيات المشتبهات في كتاب (الإتقان في علوم القرآن).

المبحث الثاني: الآيات المشتبهات في كتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار).

وختامًا أسأل الله التوفيق والإعانة، وأن يحسن النية، ويغفر الزلة، ويستر الهفوة، إنه على كل شيء قدير.

التمهيد

تكلم السيوطي (ت٩١١هـ) -رحمه الله- عن الآيات المشتبهات في القرآن الكريم في كتبه التالية: (التحبير في علم التفسير)، و(الإتقان في علوم القرآن)، و (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، وتناوله في تفسيره (قطف الأزهار في كشف الأسرار) أثناء تفسيره لآي القرآن الكريم، ووقوفه عند الآيات المشتبهات، فكان ينقل أقوال العلماء في مواضع، ويعلق بتوجيه مختلف في مواضع أخرى.

وسماه بـ(الآيات المشتبهات) في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)، وسماه في (معترك الأقران) بـ(مشتبهات آياته)، وسماه بـ(الأشباه) في كتابه التحبير.

ويعد كتاب التحبير أقدم تأليفاً من الإتقان، لكن كتاب الإتقان أشمل، وأكثر بسطاً منه، فالسيوطي اختار أن يوجز في التحبير، ويفصل في الإتقان، وموضوعات الكتابين متقاربة، مع بعض الاختلافات[١].

ونظراً لتكرار شواهد الآيات المشتبهات في كتب السيوطي: (الإتقان)، و(معترك الأقران)، و(التحبير)، سأكتفي بما ورد من شواهد في كتاب (الإتقان).

١. الآيات المشتبهات في كتاب: (الإتقان في علوم القرآن):

يعد كتاب (الإتقان) من أهم كتب السيوطي، وأشملها حديثاً في علوم القرآن، فقد توسع في الحديث في كتابه هذا عن الإعجاز القرآني، وعدّ الآيات المشتبهات نوعاً منه، حيث ذكرها في النوع الثالث والستين، وقد بدأ الحديث عن هذا الموضوع بذكر أول من أفرده بالتصنيف، وعنده أن الكسائي (ت١٨٩هـ) هو المقدم في ذلك، فيقول: «أفرده بالتصنيف خلق أولهم -فيما أحسب- الكسائي، ونظمه السخاوي، وألف في توجيهه الكرماني كتابه (البرهان في متشابه القرآن)، وأحسن منه (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبي عبد الله الرازي، وأحسن من هذا (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير، ولم أقف عليه، وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف، سماه (كشف المعاني عن متشابه المثاني)، وفي كتابي (أسرار التنزيل) المسمى: (قطف الأزهار في كشف الأسرار) من ذلك الجم الغفير»[٢].

وقول السيوطي بأن أول من صنف في هذا العلم هو الكسائي قول مختلف فيه، فهناك قولان:

القول الأول: أن أول من تكلم في هذا الباب هو الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، صاحب كتاب (درة التنزيل)، وقد صرح الإسكافي بأنه أول من قرع هذا الباب، وألف فيه، يقول في مقدمة كتابه: «فاعلموا حملة الكتاب المبين الحكيم، وحفظة القرآن المتين الكريم،... أني مذ خصني الله تعالى بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودراسته، تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر وروية، في الآيات المتكررة، بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المتعلقة والمنحرفة، تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص

(١) ينظر: التحبير في علم التفسير، السيوطي (١٣).
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٣/٣٩٠).

الكلمة بآياتها، دون أشكالها، فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت عن أسرار معاني المتأولين المحققين المتبرين، فما وجدتُ أحداً من أهلها بلغ غاية كننها، كيف؟ ولم يقرع بابها، ولم يفتر عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار لمبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً»[(١)].

وقد وافق ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) الإسكافي في كونه أول من قرع هذا الباب، حيث يقول في سبب تأليفه لكتابه (ملاك التأويل): «وإنّ مما حرك إلى هذا الغرض، وألحقه عند من تحلى ولوعاً باعتباره، والتدبر لعجائبه الباهرة وأسراره، بمثل حالي على استحكام جذبي وإمحالي بالواجب المفترض، إنه باب لم يقرعه ممن تقدم وسلف، ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف، أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد، وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه، وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفتّه أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين، إلى أن ورد علي كتاب لبعض المعتنين من جلة المشارقة، -نفعه الله- سماه بكتاب (درة التنزيل وغرة التأويل)، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعرف أنه باب لم يوجفه عنه أحد قبله بخيل ولا ركاب، ولا نطق ناطق قبل فيه، بحرف مما فيه»[(٢)].

وقول الإسكافي بأنه أول من قرع هذا الباب، لا ينافي كون الكسائي قد سبقه في الكلام عن الآيات المشتبهات، بل إن السيوطي في كلامه لم يغفل دور الإسكافي في ظهور هذا العلم، بل ذكر أنه أحسن من صنف في هذا الباب، ولكن قد يكون مقصد الإسكافي في كونه قد سبق غيره في الكلام عن هذا الموضوع أنه كان يقصد التأليف فيه، وإفراده بمصنف، وبيان أسراره وعجائبه، ولا يقصد بأنه أول من تكلم في هذا العلم عامة، فالكسائي (ت١٨٩هـ) سابق لزمن الإسكافي بقرنين من الزمن تقريباً، وقد تطرق لهذا الموضوع، وألف فيه كتابه (متشابه القرآن)، وهو كتاب مطبوع.

القول الثاني: يذكر د.حازم سعيد حيدر في كتابه (علوم القرآن بين البرهان والإتقان) تعقيباً على كلام السيوطي بأن أول من صنف في هذا الباب هو الكسائي، بأن هناك من سبق الكسائي في هذا الباب، يقول: «ذكر -رحمه الله- في أول النوع أن الكسائي -فيما يحسب- أول من ألف في المتشابه اللفظي، لكن نجد ابن النديم يذكر[(٣)] أن لمقاتل بن سليمان البلخي(ت١٥٠هـ)، ولحمزة بن حبيب الزيات (ت١٥٤ أو ١٥٦هـ)، ولنافع بن عبدالرحمن المدني(ت١٦٩هـ) كتباً في متشابه القرآن، فإن صحت أنها في المتشابه اللفظي، فهم أسبق من الكسائي، ووجدت ابن المنادي يستدل بتحفظ أن كتاب موسى الفراء أول شيء

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي (١/٢١٧-٢١٩).
(٢) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي (١/١٤٥-١٤٦).
(٣) ينظر: الفهرست، لابن النديم (٥٦).

وضع في هذا الضرب (أي المتشابه)، وهو تلميذ عبدالله بن عيسى بن أبي ليلى(ت١٣٠هـ)، فلو قدرنا أنه توفي بعد شيخه بخمسين عاماً، تكون وفاته عام (١٨٠هـ)، أي أسبق وفاة من الكسائي»[١].

وواضح أن كلام ابن النديم ليس فيه جزم بأن مؤلفات: مقاتل وحمزة ونافع كانت في المتشابه اللفظي، فهو ذكر الكتب المؤلفة في متشابه القرآن، ولم يذكر شيئاً عنها، وعما تحتويه، ولكن يبقى احتمال أنها في المتشابه اللفظي، وهذا لا يلغي أن الكسائي من أوائل من تكلم في هذا الموضوع، والسيوطي لم يجزم بذلك، بل ذكر أن هذا القول هو على حسب علمه، ولكن يبقى كتاب الكسائي (متشابه القرآن) أقدم مؤلف مطبوع وصلنا في هذا الباب.

وبعد أن ذكر السيوطي أول من صنف في هذا الباب، تطرق لتعريف التشابه في الآيات، فقال: "والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة."[٢] وهذا التعريف ذكره الزركشي (ت٧٩٤هـ) في كتابه (البرهان في علوم القرآن)[٣]، ونقله عنه السيوطي، ولم ينسبه إليه.

ثم بدأ السيوطي بذكر أنواع التشابه، يقول: "...بل تأتي في موضع واحد مقدماً، وفي آخر مؤخراً، كقوله في البقرة: (وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة)، وفي الأعراف: (وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً)، وفي البقرة: (وما أهل به لغير الله)، وسائر القرآن (وما أهل لغير الله به)، أو في موضع بزيادة، وفي آخر بدونها، نحو: (سواء عليهم أأنذرتهم) في البقرة، وفي يس (وسواء عليهم أأنذرتهم)، وفي البقرة (ويكون الدين لله)، وفي الأنفال (كله لله)، أو في موضع معرفاً، وفي آخر منكراً، أو مفرداً، وفي آخر جمعاً، أو بحرف، وفي آخر بحرف آخر، أو مدغماً، وفي آخر مفكوكاً."[٤] فهو هنا يذكر ستة أنواع للتشابه في الآيات، فأنواع التشابه عنده هي: الاختلاف في التقديم والتأخير، والاختلاف في الزيادة والنقص (الذكر والحذف)، والاختلاف في التعريف والتنكير، والاختلاف في الإفراد والجمع، والاختلاف في إبدال حرف بحرف آخر، والاختلاف في الإدغام والفك.

وقد ذكر السيوطي بعض الأمثلة متفرقة في ثنايا كتابه، في غير النوع الثالث والستين، فذكر بعضاً منها من دون توجيه في النوع الرابع والأربعين: (في مقدمه ومؤخره)، وفي النوع الثامن والأربعين: (في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض).

٢. الآيات المشتبهات في كتاب: (قطف الأزهار في كشف الأسرار):

يعد تفسير (قطف الأزهار) من أهم كتب السيوطي التي ذكر فيها توجيهه للآيات المشتبهات، وقد أشار بنفسه إلى هذا الكتاب في كتابه الإتقان، وأن فيه من الأسرار الجم الغفير.

---

(١) علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د.حازم حيدر (١٥٤-١٥٥).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٠).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/١١٢).

(٤) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٠-٣٩١).

وهذا الكتاب تناول فيه المؤلف آيات القرآن بالبيان والتفسير، وكشف ما فيها من إعجاز وبيان وبلاغة، فلا يكاد يترك في كتابه آية فيها ملمح بلاغي، أو فن بديعي، إلا وأشار إليه.

وقد وصل السيوطي في تفسيره هذا إلى سورة التوبة، عند الآية (٩٢)، وقد قام تلميذه محمد بن محمد السنهوري بكتابة النسخة الثانية لهذا التفسير، وانتهى منها سنة ٩١٧هـ، يقول السنهوري: «هذا آخر ما انتهى إليه شيخنا، حافظ العصر المجتهد، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن السيوطي...»[(١)].

والسيوطي في تفسيره هذا، يكثر النقل عن غيره، حتى يكاد يكون كتابه أغلبه نقولات، وقد يخرج في بعض الأقاويل عن مجرد النقل، فيخالف رأي من نقل عنه، وقد ينفرد برأي لم يسبقه إليه أحد، وهناك مصادر عديدة أكثر النقل عنها، وأشار إليها، إما تصريحاً، أو تلميحاً، وهناك مصادر أخرى كان قليل النقل عنها، ومن أهم العلماء الذين نقل عنهم في توجيه الآيات المشتبهات: الفراء (ت٢٠٧هـ)، والخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، والراغب (ت٥٠٢هـ)، والكرماني (ت٥٠٥هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وابن عطية (ت٥٤١هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، وابن جماعة (ت٧٣٣هـ)، وأبو حيان (ت٧٤٥هـ)، والزركشي (ت٧٩٤هـ).

❁❁❁❁❁

(١) قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي (١/٨٥).

المبحث الأول

شواهد الآيات المشتبهات في كتاب (الإتقان في علوم القرآن)

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، **وقوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾** [لقمان:٣]:

في الآية الأولى وصف تعالى القرآن الكريم بأنه منزل من عنده سبحانه، لا شك ولا ريب في ذلك، وأنه هداية ونفع للمتقين، وفي الآية الثانية وُصفت آيات القرآن الكريم بالحكمة، وأنها هدى ورحمة للمؤمنين المحسنين، إلا أنه في الآية الأولى وُصف القرآن بأنه هدى للمتقين، وفي الآية الثانية وُصِف بأنه هدى ورحمة للمحسنين، فلم هذا الإبدال بين (المتقين) و(المحسنين)؟

يقول السيوطي في توجيهه لهذا الاختلاف: «قوله تعالى في البقرة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وفي لقمان: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لأنه لما ذكر هنا مجموع الإيمان ناسب (المتقين)، ولما ذكر ثم الرحمة ناسب (المحسنين)»[(١)]. وهذا السبب ذكره ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) بنصه[(٢)]، ونقله السيوطي عنه، ولم ينسبه إليه.

وقد فصّل الرازي (ت ٦٠٦هـ) في سبب الاختلاف بين الآيتين عند تفسيره لسورة لقمان، وذكر بأن زيادة لفظة (رحمة) ساهمت في اختلاف الآيتين، فخص المتقين بالهدى في البقرة، لأنه أراد بالمتقي التارك للكفر، وفي لقمان خص المحسنين بالهدى، لأنه أراد بالمحسن الآتي بالإيمان، يقول: «قال هناك: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وقال هاهنا: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لأنه لما ذكر أنه هدى، ولم يذكر شيئا آخر، قال: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد هاهنا (رحمة) قال: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي المتقين الشرك والعناد، الآتين بكلمة الإحسان، فالمحسن هو الآتي بالإيمان، والمتقي هو التارك للكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة، لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]؛ ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين»[(٣)].

فالخلاصة أن السياق كان له دور في هذا الاختلاف، فكل آية جاءت مناسبة لسياقها، فخص المتقين بالهدى في البقرة، لأنه أراد بالمتقي التارك للكفر، وفي لقمان زاد كلمة (رحمة)، لأنه أراد بالمحسن المؤمن المتقي، ففيها زيادة في المعنى عن آية البقرة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩١).

(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني (٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي (٢٥/١١٥).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]، **وقوله تعالى:** ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٩]:

ذكر الله تعالى هاتين الآيتين في قصة آدم، في موضعين مختلفين من القرآن الكريم، فالآية الأولى ذكرت في سورة البقرة، والثانية ذكرت في سورة الأعراف، وفيهما خطاب لآدم عليه السلام وزوجته حواء بأن يسكنا الجنة، ويأكلا من ثمارها، ولا يقربا شجرة معينة، حتى لا يكونا من الظالمين.

وقد وقع الاختلاف بين الآيتين في الفعل (كُلا)، ففي الأولى عطف بالواو، وفي الثانية عطف بالفاء، فما السر في ذلك؟

السيوطي نقل توجيه الاختلاف بين الآيتين، وأنه نابع من معنى السكنى، ففي البقرة معناه طول المكث والاستقرار، فعطف بالواو للجمع بين الأكل والسكن، وفي الأعراف معناه اتخاذ المسكن، فعطفه بالفاء، لأن الأكل يجيء بعد اتخاذ السكن، يقول: «قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا﴾، وفي الأعراف ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء، قيل: لأن السكنى في البقرة: الإقامة، وفي الأعراف: اتخاذ المسكن، فلما نسب القول إليه تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو، الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولذا قال فيه: ﴿رَغَدًا﴾، وقال: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ لأنه أعم، وفي الأعراف ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾ فأتى بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها، لأن الأكل بعد الاتخاذ، و﴿مِنْ حَيْثُ﴾ لا تعطي عموم معنى ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾»[1]، وقد نقل هذا التوجيه من كلام ابن جماعة[2].

ويرى الإسكافي أن المراد بالسكنى في البقرة الاستقرار وطول المقام، وأن الخطاب بعد دخول آدم الجنة، فجمع فيها بين الإقامة والأكل، والأكل لا يختص وجوده بالاستقرار، وطول المقام، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه، وإن كان مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء، وجب العطف بالواو دون الفاء، أما في الأعراف فعطف بالفاء، لأن المراد بالسكنى هو الدخول للمكان، أو لزوم المكان الذي تم دخوله، فمعنى الخطاب في قوله: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ يعني: ادخل، فالخطاب في البقرة كان بعد الدخول، وفي الأعراف قبل الدخول[3].

وذهب الكرماني إلى قريب من هذا القول، يقول: «﴿ٱسْكُنْ﴾ في الآيتين ليس بأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة، وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة، وذلك يستدعي زماناً ممتداً، فلم يصلح

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣٩١/٣).

(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة (٩٣).

(٣) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، (٢٢٢/١-٢٢٤).

إلا بالواو، لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها، والأكل من ثمارها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة؛ لأن الفاء للتعقيب والترتيب، والذي في الأعراف من السكنى، الذي معناها اتخاذ الموضع مسكناً، لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨]، وخاطب آدم فقال: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ أي: اتخذاها لأنفسكما مسكناً، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، فكانت الفاء أولى، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه، وزاد في البقرة ﴿رَغَدًا﴾ لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: ﴿وَقُلْنَا﴾، بخلاف سورة الأعراف فإن فيها (قال)»[(١)].

ونخلص إلى أن السر البلاغي في اختلاف الآيتين يكمن في وقت الخطاب، وفي معنى السكن، ففي البقرة الخطاب كان بعد دخول آدم الجنة، والمراد من السكن فيها هو الاستقرار وطول المقام، فجمع فيها بين الإقامة والأكل، أما في الأعراف فعطف بالفاء؛ لأن الخطاب قبل دخول الجنة، والمراد بالسكن هو الدخول للمكان، أو لزوم المكان الذي تم دخوله.

٣- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، **وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾** [البقرة: ١٢٣]:

جاءت هاتان الآيتان في معرض كلام الله تعالى عن بني إسرائيل، وتذكيرهم بالنعم التي أحاطهم بها، ففيهما تخويف لبني إسرائيل بيوم القيامة، وأنه لا تغني فيه نفس عن نفس، ولو كانت أقرب قريب، فلا يقبل في ذلك اليوم شفاعة الشافعين، ولا يؤخذ فيه الفداء، ففي الآيتين نفي للشفاعة والفداء يوم القيامة.

واختلف المفسرون في مرجعية الضمير في (منها) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾، أيهما يرجع للنفس الأولى؟ وأيهما يرجع للنفس الثانية؟ فمن المفسرين من يختار رجوع الضمير الأول للنفس الأولى، والضمير الثاني للنفس الثانية، ومنهم: الكواشي (٦٨٠هـ)، فقد نقل الألوسي (١٢٧٠هـ) في تفسيره روح المعاني، أن الكواشي اختار جعل الضمير الأول للنفس الأولى، والضمير الثاني للنفس الثانية، على طريقة اللف والنشر[(٢)]، لما فيه من إجراء الجملتين على المعنى الظاهر منهما[(٣)].

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني (٧٠-٧١).

(٢) اللف والنشر: «هو: ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه، والنشر المرتب». والنشر المرتب: هو ما جاء على نفس ترتيب اللف. الإيضاح، للقزويني (٢٦٨).

(٣) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٢٥٣/١).

ومن المفسرين من يرجع الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ إلى النفس الثانية العاصية، كالزمخشري (٥٣٨هـ)[١]، والرازي (٦٠٦هـ)[٢]، والبيضاوي (٦٨٥هـ)[٣]، والنيسابوري (٨٥٠هـ)[٤]، لكنهم جوزوا أن يرجع للنفس الأولى، أما أبو حيان (٧٤٥هـ) فيرى بأن الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ يجوز أن يعود على ﴿نَفْسٌ﴾ المتأخرة؛ لأنها أقرب مذكور، ويجوز أن يعود الضمير على ﴿نَفْسٌ﴾ الأولى، لكنه رجّح عوده إلى النفس الأولى، لأنها هي المحدث عنها في قوله: ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة[٥]، أما ابن جماعة فيرجع الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ في الآية الآولى إلى النفس الأولى، وهي النفس الشافعة الجازية عن غيرها، وفي الآية الثانية يرجع الضمير إلى النفس الثانية، وهي النفس المطلوبة بجرمها[٦].

والملاحظ في الآيتين أن الشفاعة قدمت على العدل في الآية الأولى، وتأخرت عنه في الآية الثانية، مع أن موضوعهما واحد، والمخاطب بهما واحد، فما سبب ذلك؟

ينقل السيوطي سبب ذلك فيقول: «وقدمت الشفاعة؛ لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها، وبيّن في الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع منها، وقدم العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند رده، ولذلك قال في الأولى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾، وفي الثانية: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له»[٧].

وقد أخذ السيوطي توجيهه هذا من ابن جماعة، الذي يرى أن المراد بالنفس في الآية الأولى هي النفس الشافعة، فكأنه بيّن أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعتها، ولايؤخذ منها عدل عنها، لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل، ولهذا قدم الشفاعة، وبيّن أن المراد بالنفس في الآية الثانية هي النفس المطلوبة بجرمها، المشفوع لها، فهذه لا يقبل منها عدل وفداء عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقدم بذل العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة تكون بعد رده، وليس قبل رده، فلذلك قال في الآية الأولى: لا يقبل منها شفاعة، وفي الآية الثانية: ولا تنفعها شفاعة، لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له[٨]، أما الرازي فأشار إلى أن تقديم الشفاعة على العدل في الآية الأولى أشير به إلى من كان

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (١٣٧/١).
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٤٩٥/٣).
(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (٧٨/١).
(٤) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (٢٨٠/١).
(٥) ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان (٣٠٨/١).
(٦) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (٩٥).
(٧) الإتقان في علوم القرآن، (٣٩٢/١).
(٨) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (٩٥).

يميل إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس، فإنه حينئذ يقدم التمسك بالشفاعة على تقديم الفدية، ومن كان بالعكس فيقدم الفدية على الشفاعة، وفائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين[١]، وللكرماني رأي آخر وهو أن تقديم الشفاعة كان قطعاً لطمعهم بشفاعة آبائهم وأصنامهم، وقدم العدل واخر الشفاعة في الثانية لأن التقدير في الآيتين معاً: لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة، لأن النفع بعد القبول، فقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها[٢]، وللسيوطي رأي آخر في سبب تقديم قبول الشفاعة على أخذ الفدية، وعكسه في الآية الثانية، وأنه جاء للتفنن[٣]، وفي رأيي أن هذا هذا السبب ليس كافياً، وإنما هو غرض عام، لا يمكن أن يحصر الاختلاف بين الآيتين فيه فقط، بل قد يكون سبباً يضاف إلى ما ذكر من أقوال العلماء السابقين.

ويمكن أن نجمع بين الآراء كلها، فنخلص إلى أن تقديم الشفاعة كان رداً على مزاعم المشركين بأنّ شفاعة آبائهم وأصنامهم تنفعهم يوم القيامة عند الله، فبيّن تعالى أن النفس الشافعة لا تقبل منها شفاعتها، ولايؤخذ منها عدل، فكان هذا قطعاً لطمع المشركين، ودحراً لمزاعمهم، فالآية الأولى نافية لنفع الغير، وتقديم العدل في الآية الثانية كان رداً لمزاعم من قال: بأن الفداء ينفع يوم القيامة، فجاء الرد بأن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، فنفى تعالى في الآية الثانية أن يكون فداء الإنسان نفسه بالمال نافع في ذلك اليوم العظيم.

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩]، **وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** [إبراهيم: ٦]:

هاتان الآيتان فيهما تذكير من الله عز وجل لبني إسرائيل بنعمة عظيمة، ومنة جليلة، وهي إنقاذهم من بطش فرعون وقومه، فقد كانوا يعذبونهم أشد العذاب، ويقتلون أبناءهم، ويجعلون نساءهم خدماً لهم، فأي منة أعظم من خلاصهم من هذا البلاء، وهذه الشدة.

والاختلاف بين الآيتين جاء في الفعل **﴿يُذَبِّحُونَ﴾**، ففي الأولى فصلت الجملة عما قبلها، وجاءت غير معطوفة، وفي الثانية وصلت بالجمل التي قبلها، وعطفت عليها بالواو، والسبب عند السيوطي أن آية البقرة من كلام الله تعالى، فلم يرد تعداد المحن عليهم، تكرماً في الخطاب، وفي آية إبراهيم الكلام من موسى، وهو أراد تعداد المحن والمصائب عليهم، وفيه كذلك تفنن في الخطاب[٤]، وقد سبقه إلى هذا التوجيه الإسكافي،

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، (٣/٤٩٤).
(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، (٧١-٧٢).
(٣) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، (١/٢٤٧).
(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (١/٣٩٢).

الذي يرى أن الخطاب في البقرة من الله عز وجل، وأن ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدل من ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، فلم يرد أن يعدد عليهم المصائب، فلم يحتج إلى العطف بالواو، أما في سورة إبراهيم فالكلام من موسى، فقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ عذاب مختلف عن ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، ففي الآية تعداد للمحن التي جرت على بني إسرائيل، فاحتاج إلى العطف بالواو[(١)].

وقد سبق الفراء (ت٢٠٧هـ) إلى هذا التفسير، وذكر أن الذبح في آية البقرة هو تفسير للعذاب، وأن عطفه بالواو في سورة إبراهيم يدل على تعدد العذاب، وتنوعه، وأن فرعون وقومه كانوا يعذبون بني إسرائيل بعذاب غير الذبح، يقول: «وقوله هاهنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وفي موضع آخر ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو، وفي موضع آخر ﴿يُقَتِّلُونَ﴾[(٢)] بغير واو، فمعنى الواو: أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح، وبالذبح، ومعنى طرح الواو: كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة، ثم فسرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو»[(٣)]، وقد نقل أبو إسحاق الثعلبي (ت٤٢٧هـ)[(٤)]، والسيوطي[(٥)] هذا القول عن الفراء.

فالآية الأولى جاء الذبح فيها تفسيراً للعذاب، فلم تعطف بالواو، أما الآية الثانية فعطفت على ما قبلها بالواو؛ لبيان كثرة المصائب التي حلت ببني إسرائيل، وأن كل مصيبة تختلف عن الأخرى.

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩]، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢]:

في هذه الآيات تذكير من الله تعالى لبني إسرائيل بنعمة عظيمة، حين قال تعالى لهم: ادخلوا بيت المقدس، فكلوا من حيث شئتم، وادخلوا الباب خاضعين لله، ساجدين له، متذللين إليه، وقولوا: اغفر لنا ذنوبنا، فإن قلتم فسنستجيب لكم، ونعف عنكم، وسنزيد المحسنين بغير حساب، لكن الذين ظلموا وكفروا بالله، بدلوا ما أمرهم الله به من القول، فأنزل الله عليهم عذاباً من السماء، بسبب ظلمهم وعصيانهم.

---

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل (١/٢٣٠-٢٣٢).

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٤١].

(٣) معاني القرآن، الفراء (٢/٦٨).

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (٥/٣٠٦).

(٥) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، (١/٢٥٠).

والملاحظ في الآيات وجود اختلافات متعددة، ذكرها السيوطي إجمالاً، ففي سورة البقرة جاء الفعل منسوباً إليه سبحانه ﴿قُلْنَا﴾، وجمعت كلمة خطيئة على خطايا، ووردت كلمة ﴿رَغَدًا﴾، وتقدم قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، ولم ترد كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾، وختمت آيات البقرة بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾، أما في سورة الأعراف فجاء الفعل بصيغة ﴿قِيلَ﴾، وجمعت خطيئة على ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾، وحذفت ﴿رَغَدًا﴾، وتقدم قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، ووردت فيها كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾، وختمت آيات السورة بـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، والسر في ذلك: أن آية البقرة جاءت في سياق تعداد وذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، فناسبها هذا النظم، وناسب زيادة كلمة تدل على الإكرام، فقال: ﴿رَغَدًا﴾، وناسب جمع خطيئة على وزن الكثرة، أما في الأعراف فجاءت الآية في سياق التوبيخ لبني إسرائيل، فناسب مجيء الفعل على ﴿قِيلَ﴾، وناسب حذف ﴿رَغَدًا﴾، وناسب جمع خطيئة على خطيئاتكم، وناسب تقدم قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، وعطف الفعل (كلوا) بالفاء في البقرة، وبالواو في الأعراف، لأن الأكل متعلق بدخول القرية، فالدخول سبب للأكل، فناسبت الفاء، أما في الأعراف فإن السكن يعنى طول المكث، ولهذا جاء بـ﴿ٱسْكُنُواْ﴾، دون ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، والأكل لا يختص بوجود السكن، فقد يأكل الإنسان من القرية أو البستان وهو مجتاز، فلا يشترط المكث، فجاء بالواو، وجاء الفعل ﴿سَنَزِيدُ﴾ معطوفاً بالواو في البقرة، وغير معطوف في الأعراف، لدلالة الواو على الجمع بين المغفرة والزيادة.

وجاءت في سورة الأعراف لفظة ﴿مِنْهُمْ﴾، وتركت في البقرة في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنه جاء في الأعراف تبعيض الهادين بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩]، فناسب تبعيض الظالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، ولم يتقدم في البقرة مثله فترك، وفي البقرة إشارة إلى سلامة غير الظالمين، لتصريحه بإنزال الرجز على المتصفين بالظلم دون غيرهم، والإرسال أشد وقعاً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة ذلك، وختم آية البقرة بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾، ولا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق، فناسب كل لفظة منها سياقه[1].

وأطال السيوطي تفسير هذا الاختلاف في كتابه (قطف الأزهار)، وذكر أن آية البقرة جاءت في معرض تعداد النعم، فناسب نسبة القول إليه سبحانه، فقال ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾، بخلاف آية الأعراف، فإنها افتتحت بتوبيخ بني إسرائيل، فناسب ذلك ﴿وَإِذ قِيلَ لَهُمُ﴾، وناسب سياق البقرة كذلك ذكر كلمة ﴿رَغَدًا﴾؛ لأن النعمة به أتم، وقدم ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، وأتى بـ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ لأنه جمع كثرة، وفي الأعراف ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾، وهو جمع سلامة، وأصله للقلة، والأول أليق بـ﴿قُلْنَا﴾، وبتعداد النعم، وزاد الواو في

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٢-٣٩٣).

﴿وَسَنَزِيدُ﴾؛ لدلالتها على الجمع بين المغفرة والزيادة، وشدة الاتصال والملاءمة، وحذفها في الأعراف قطعاً واستئنافاً، فكأنه قيل: وما بعد الغفران؟ فقيل: سنزيد المحسنين، وزاد في الأعراف ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليكون في مقابل قوله في أول القصة: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩]، فيساوي آخر الكلام أوله، ويطابق عجزه صدره، فيكون الظالمون من قوم موسى عليه السلام في مقابلة الهادين منهم، وقال في البقرة ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ وفي الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؛ لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت في الأعراف، فجاء ذلك موافقاً، ولأن الإرسال أشد وقعاً من الإنزال، وهو مناسب لآية الأعراف دون آية البقرة التي جاءت في سياق تعداد النعم، وختمت البقرة بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾، والأعراف بـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وهذا من قبيل التفنن[(١)].

وقد نقل السيوطي تعليلاته هذه من ابن جماعة (٧٣٣هـ)[(٢)]، والذي نقل بعض آرائه من الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، والكرماني (ت٥٠٥هـ)، فقد ذكر الإسكافي ستة اختلافات في هذه الآيات، الأول: عطف ﴿فَكُلُوا﴾ على ما قبله بالفاء في البقرة، وبالواو في الأعراف، و الثاني فجمعه للخطيئة على الخطايا في البقرة، وعلى الخطيئات في الأعراف، والثالث زيادة ﴿رَغَدًا﴾ في البقرة، وحذفها في الأعراف، والرابع تقديم قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ في الأعراف، وتأخيره في البقرة، والخامس إدخاله الواو على ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ في البقرة، وإسقاطها منها في الأعراف، والسادس زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾ في الأعراف، وسقوطها من الآية في البقرة[(٣)]، وزاد الكرماني على هذه الستة مسألة سابعة، هي الاختلاف في ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ و﴿فَأَنزَلْنَا﴾[(٤)].

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، **وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [الأعراف:١٦٠]:

يخبر تعالى في هاتين الآيتين عن نعمة عظيمة، وهي واحدة من النعم الكثيرة التي أنعم بها على بني إسرائيل، وهي حين استسقاه موسى لقومه، فأمره تعالى أن يضرب بعصاه الحجر، ففعل، فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً، بعدد قبائل بني إسرائيل الاثني عشر، وعلمت كل قبيلة مكان شربها، حتى لا يختلفوا بينهم، وقال لهم الله: كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تمشوا في الأرض مفسدين، لكنهم ظلموا أنفسهم، وعصوا ربهم، فلم يشكروه على نعمه، ولم يقوموا بما فرض عليهم.

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، (١/٢٥٦-٢٦٠).
(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (٩٦-٩٨).
(٣) ينظر: درة التنزيل، الإسكافي (١/٢٣٣-٢٤٢).
(٤) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، (٧٢-٧٤).

وقد جاء التعبير في سورة البقرة ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وفي سورة الأعراف بـ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وسبب هذا الاختلاف في التعبير عند السيوطي: أن الانفجار أبلغ في كثرة الماء، وسياق البقرة هو سياق تعداد النعم، فناسب سياق البقرة التعبير بالانفجار.(١)

أما الكرماني (ت٥٠٥هـ): فيرى أن معنى الانفجار: انصباب الماء بكثرة، والانبجاس: ظهور الماء، وجاء في سياق سورة البقرة ذكر للشرب، فذكر الانفجار لأنه أبلغ، وليس في سورة الأعراف ذكر للشرب، فلم يبالغ فيه(٢)، أما الرازي (ت٦٠٦هـ) فقد فسر هذه الاختلاف بثلاثة أوجه، يقول: «ذكر هاهنا: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وبينهما تناقض، لأن الانفجار خروج الماء بكثرة، والانبجاس خروجه قليلاً، الجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: الفجر الشق في الأصل، والانفجار الانشقاق، ومنه الفاجر، لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص، فلا يتناقضان.

وثانيها: لعله انبجس أولاً، ثم انفجر ثانياً، وكذا العيون: يظهر الماء منها قليلاً، ثم يكثر لدوام خروجه.

وثالثها: لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر، أي يخرج الماء كثيراً، ثم كانت تقل، فكان الماء ينبجس، أي يخرج قليلاً»(٣).

أما ابن الزبير (ت٧٠٨هـ) فيرى أنه لما كان المستسقي في سورة البقرة موسى عليه السلام ناسب ذلك (انفجرت)، بخلاف الأعراف، فإن المستسقي فيها هم قوم موسى، فناسب ذلك (انبجست)، يقول: «الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾، والوارد في سورة البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾، فطلبهم ابتداء، فناسبه الابتداء، وطلب موسى عليه السلام غاية لطلبهم، لأنه واقع بعده، ومرتب عليه، فناسب الابتداء الابتداء، والغاية الغاية، فقيل جواباً لطلبهم: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وقيل إجابة لطلبه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وتناسب ذلك، وجاء على ما يجب، ولم يكن ليناسب العكس، والله أعلم»(٤).

أما ابن جماعة (٧٣٣هـ) فيرى أن الانفجار أبلغ في كثرة الماء من الانبجاس، ونقل قولاً آخر، وهو أنهما بمعنى واحد، فيكون ذلك من تنويع الألفاظ والفصاحة(٥).

أما أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) فنقل أربعة أقوال لهذا الاختلاف، وأتبعها برأيه، وهو أن ظاهر القرآن استعمالهما بمعنى واحد، يقول: «وجاء هنا: (انفجرت) وفي الأعراف ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، فقيل: هما سواء،

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٣).
(٢) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، (٧٤).
(٣) مفاتيح الغيب، (٣/٥٢٩).
(٤) ملاك التأويل، (١/٢١٢-٢١٣).
(٥) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (٩٨-٩٩).

انفجر وانبجس وانشق مترادفات، وقيل: بينهما فرق، وهو أن الانبجاس هو أول خروج الماء، والانفجار اتساعه وكثرته، وقيل: الانبجاس خروجه من الصلب، والانفجار خروجه من اللين، وقيل: الانبجاس هو الرشح، والانفجار هو السيلان، وظاهر القرآن استعمالهما بمعنى واحد، لأن الآيتين قصة واحدة»(١).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣]:

يبين تعالى في الآية الأولى قاعدة مهمة، وهي: لن ترضى عنك -يا محمد- اليهود ولا النصارى حتى تترك دينك، وتتبع دينهم، فقل لهم حينئذ: إن الهدى الذي بعثت به -وهو دين الإسلام- هو الدين الحق، فإن تبعتهم بعد ما جاءك من العلم، فليس الله وليك، ولا نصيرك.

وفي الآية الثانية يحكي تعالى قولاً من أقوال طائفة من اليهود، حيث يقول بعضهم: لا تؤمنوا ولا تصدقوا إلا من اتبع دينكم، فأمر الله رسوله أن يقول لهم: إن الهدى هدى الله، والفضل والعطاء بيد الله، يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

وقد حصل تقديم وتأخير في هاتين الآيتين، فتقدمت كلمة ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ في آل عمران، وتأخرت في البقرة، ويبين السيوطي سبب ذلك بقوله: «لأن الهدى في البقرة المراد به تحويل القبلة، وفي آل عمران المراد به الدين، لتقدم قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، ومعناه إن دين الله الإسلام»(٢)، وهذا هو رأي الكرماني (ت٥٠٥هـ)(٣)، وابن جماعة (ت٧٣٣هـ)(٤)، وقد نقله السيوطي عنهما.

فالمراد بالهدى في آية البقرة: تحويل القبلة، لأن الآية نزلت فيها، والمعنى: إن قبلة الله هي الكعبة، والمراد بالهدى في آية آل عمران: الدين، لتقدم قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، والمعنى: إن الدين عند الله الإسلام.

٨- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]:

يذكر تعالى في هاتين الآيتين دعاء إبراهيم عليه السلام بأن يجعل مكة بلداً آمناً، ويرزق أهله الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وأن يبعده وأبناءه عن عبادة الأصنام.

(١) البحر المحيط، (١/٣٦٩).
(٢) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٤).
(٣) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، (٩٢).
(٤) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (١٠٤).

والملاحظ أنه حصل اختلاف في الآيتين، حيث جاءت كلمة (بلد) بالتنكير في سورة البقرة، وبالتعريف بـ(أل) في سورة إبراهيم، فما السر في ذلك؟ يقول السيوطي: «قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا﴾، وفي إبراهيم: ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾؛ لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً، عند ترك هاجر وإسماعيل به، وهو وادٍ، فدعا بأن يصير بلداً، والثاني دعا به بعد عوده، وسكنى جرهم به، ومصيره بلداً فدعا بأمنه»[(١)].

وأول من قال بهذا التفسير هو الإسكافي، وله تعليل آخر ينظر فيه إلى سياق الآيات، فالدعوتان كانتا بعد ما صار المكان بلداً، فتقدير آية البقرة: اجعل هذا البلد بلدا آمنا، فيدعو له بالأمن بعد ما قد صار بلداً، ويكون مثل قوله: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾، وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله تعالى عنها في الموضعين[(٢)].

ولابن الزبير الغرناطي في تنكير وتعريف (بلد) تعليل وجيه، حيث ذكر أن اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في البقرة لا يحتاج إلى تابع يوضحه، لأنه تقدم ما يدل عليه في الآية السابقة، وهي قوله: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [١٢٥]، فلو تعرف (بلد) بـ (أل) لكان ذلك تكراراً، فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز، وأبلغ في المقصود، وأما في سورة إبراهيم فإن اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يحتاج إلى تابع يوضحه، لأنه لم يتقدم فيها ما يدل عليه، ويقوم مقامه، فلم يكن بد من إجراء البلد عليه، تابعاً له بالألف واللام، على المعهود الجاري في أسماء الإشارة[(٣)].

٩- قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]، **وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾** [آل عمران:٨٤]:

في الآية الأولى أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، وفي الآية الثانية أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، ومفاد هذا الأمر: هو أن يقولوا لليهود والنصارى: آمنا بالله وصدقنا به، وبما أنزل إلينا من القرآن، وبما أنزل من الكتب على أنبيائه إبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، وما أنزل على جميع الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن خاضعون لله، مستسلمون له.

والملاحظ أن الخطاب في الآية الأولى جاء بلفظة: ﴿إِلَيۡنَا﴾، وفي الآية الثانية جاء بلفظة: ﴿عَلَيۡنَا﴾، فما سر هذا الاختلاف، يقول السيوطي: «لأن الأولى خطاب للمسلمين، والثانية خطاب للنبي ﷺ، و (إلى) ينتهي بها من كل جهة، و (على) لا ينتهي بها إلا من جهة واحدة وهي العلو، والقرآن يأتي المسلمين من

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٤).
(٢) ينظر: درة التنزيل، (١/٢٨٤-٢٨٦).
(٣) ينظر: ملاك التأويل، (١/٥٠).

كل جهة، يأتي مبلغه إياهم منها، وإنما أتى النبي ﷺ من جهة العلو خاصة، فناسب قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾، ولهذا أكثر ما جاء في جهة النبي ﷺ بـ(على)، وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ (إلى)"[(١)]، وهذا قول ابن جماعة في (كشف المعاني)[(٢)].

وقد سبقهما الإسكافي (ت٤٢٠هـ) إلى هذا القول، فالخطاب في آية البقرة للمسلمين، وفي آية آل عمران للنبي ﷺ، وأن (إلى) تدل على الانتهاء للشيء من أي جهة كانت، أما (على) فإنها تختص بجهة العلو، وهذه الجهة خاصة بالأنبياء[(٣)].

واعترض الزمخشري (ت٥٣٨هـ) على هذا الرأي، وذكر بأنه تعسف، يقول: «فإن قلت: لم عدى (أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق، وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، ومن قال: إنما قيل: ﴿عَلَيْنَا﴾ لقوله: ﴿قُلْ﴾ و﴿إِلَيْنَا﴾ لقوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ تفرقة بين الرسل والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف»[(٤)].

لكن الإسكافي ذكر أن اختصاص آية البقرة بـ(إلى)، بسبب كونها مصدرة بخطاب لعموم المسلمين ﴿قُولُوٓاْ﴾، أن ذلك ليس على حقيقته، وإلا فالحقيقة أن الوحي لم ينزل على المؤمنين، وإنما نزل على النبي- عليه الصلاة والسلام-، ثم انتهى من عنده إليهم[(٥)].

١٠- قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، **وقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾** [البقرة:٢٢٩]:

في الآية الأولى يبين تعالى إباحة جماع النساء في ليالي رمضان بعد أن كان محرماً في أول الإسلام، ثم يبين جواز الأكل والشرب ليلاً، وأنه ينتهي بظهور الفجر الصادق، ثم يبدأ وقت الصيام إلى غروب

(١) الإتقان في علوم القرآن، (١/٣٩٤).
(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (١٠٧-١٠٨).
(٣) درة التنزيل، الخطيب الإسكافي (١/٢٩٩-٣٠٠).
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (١/٣٨١).
(٥) ينظر: درة التنزيل، (١/٣٠٠).

الشمس، ثم يبين تعالى بعض المنهيات على المعتكفين في المساجد، فنهاهم عن مجامعة نسائهم، أو مباشرتهن دون ذلك، وهذه الأحكام التي شرعها الله في هذه الآية هي حدوده التي يعرف بها الحلال من الحرام، ثم أمر بعدم الاقتراب من هذه الحدود، حتى لا يقع الإنسان في الحرام.

وفي الآية الثانية يبين تعالى عدد مرات الطلاق الذي تحصل به الرجعة، وهو طلقتان، ثم بعد الطلقة الثانية إمساك المرأة بالمعروف، أو تركها وتسريحها بإحسان، ثم بين تعالى أنه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئاً مما أعطوه نساءهم، سواء كان مهراً أو غيره، إلا أن يخاف الزوجان ألا يقوما بالحقوق التي أوجبها الله عليهما، فإن تأكد ذلك، فلا حرج حينئذ أن تخلع المرأة نفسها، فتدفع للزوج مقابل طلاقها، وهذه أحكام الله وأوامره التي تفصل بين الحلال والحرام، فلا ينبغي تجاوزها، ومن يفعل ذلك فهو من الظالمين.

والملاحظ أنه قال في الآية الأولى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وقال في الثانية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ويرى السيوطي أن سبب الاختلاف: أن الآية الأولى وردت بعد نواهٍ، فناسب النهي عن الاقتراب منها، والآية الثانية وردت بعد أوامر، فناسب النهي عن تجاوزها[(١)].

ويرى الإسكافي (ت٤٢٠هـ) أن قوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ خرج على أغلظ الوعيد، ففي هذا الموضع نهي عن مواقعة النساء في حال الاعتكاف في المساجد، ففيه تحذير من دواعي المواقعة، فاقتضى من المبالغة ما لم يقتضيه قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، فكأنه قال: لا تتجاوزوها، يعني المرأة إذا افتدت بمهرها، وخالفت زوجها، لم يكن عليها إثم، والحدود ضربان، حد هو منع من ارتكاب المحظور، وحد هو فاصلة بين الحلال والحرام، فالأول ينهى عن مقاربته، والثاني ينهي عن مجاوزته، وهو ما ينطبق على هاتين الآيتين[(٢)].

وقد ذهب الكرماني (ت٥٠٥هـ) إلى هذا التفسير، فذكر أن الحد في الآية الأولى نهي، وهو قوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾، وما كان من الحدود نهياً لا يقترب منه، والحد في الآية الثانية أمر، وهو بيان عدد الطلاق، وما كان أمراً فلا يجوز مجاوزته وتعديه[(٣)]. والزمخشري (ت٥٣٨هـ) كذلك قال بهذا التفسير، فيرى أن من كان في طاعة الله، والعمل بشرائعه، فهو في حدود الحق، ولا يجوز له أن يتعدى حدود الحق، لأن من تعداه وقع في الباطل، وهذا ما يدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ثم شدد تعالى في ذلك، فنهى من الاقتراب من الحد الذي هو الحاجز بين حدي الحق والباطل، لئلا يقترب من الباطل، وأن يكون في الوسط، متباعداً عن الطرف، فضلا عن أن يتخطاه، وهذا ما يدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[(٤)]. وعلّق السيوطي على الإتيان بصيغة الجمع في كلمة: ﴿حُدُودُ﴾، وأن هذا الجمع يعود على النهي عن مواقعة النساء حال

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٤).
(٢) ينظر: درة التنزيل، (١/٣٢٨-٣٣٠).
(٣) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، (٨٣).
(٤) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (١/٢٣٣).

الاعتكاف، وجميع الأوامر التي قبله، لكنه نقل توجيه أبي حيان في هذه المسألة[1]، وأنه أطلق على الكل: حدود، تغليباً للمنطوق به، واعتباراً بتلك المناهي التي تضمنتها الأوامر[2]، فالخلاصة أن المراد من الحدود في الأولى هي النهي عن مواقعة النساء حال الاعتكاف، وما كان نهياً فلا يقترب منه، والمراد بالحدود في الثانية هي الأوامر، وهو بيان عدد الطلاق، وما كان أمراً فلا يجوز تعديه.

١١- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]:

يبين تعالى في هذه الآية أنه نزّل على النبي ﷺ القرآن بالحق، مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام.

والملاحظ في هذه الآية أنه جاء بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾ بالتضعيف عند الحديث عن القرآن الكريم، ومن غير تضعيف ﴿وَأَنزَلَ﴾، عند الحديث عن التوراة والإنجيل، فما سر اختلاف الصيغتين، مع ورودهما في سياق واحد؟ يرى السيوطي أن سبب هذا الاختلاف هو أن القرآن الكريم نزل منجماً، ومتفرقاً على أزمنة عديدة، فناسب الإتيان بـ"نَزَّلَ" الدال على التكرير، بخلاف التوراة والإنجيل، فإنهما أنزلا دفعة واحدة[3].

وأول من ذكر هذا التفسير هو الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، يقول: «فإن قلت: لم قيل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة»[4].

فتضعيف الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ يدل على تكرار النزول وكثرته، وأنه لم ينزل مرة واحدة فقط، وإنما نزل على دفعات متعددة، فالقرآن الكريم نزل على النبي ﷺ منجماً حسب الحوادث، أما التوراة والإنجيل فقال في حقهما: ﴿وَأَنزَلَ﴾؛ للدلالة على أنهما نزلا دفعة واحدة، في وقت واحد.

١٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]، **وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾** [الإسراء:٣١]:

في الآية الأولى يبين تعالى أموراً يجب على العباد مراعاتها، وهي عدم الشرك بالله، ووجوب الإحسان إلى الوالدين، وعدم قتل الأولاد بسبب الفقر، فإن الرازق هو الله، وعدم الاقتراب من الفواحش والآثام، ظاهرها

(١) ينظر: البحر المحيط، (٢/٢٢٢).
(٢) قطف الأزهار في كشف الأسرار، (١/٤٠٦).
(٣) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٥).
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (١/٣٣٦).

وخفيها، وعدم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، فهذه الأمور المذكورة مما وصى الله به عباده، لعلهم يعقلون، وفي الآية الثانية ينهى تعالى عن قتل الأولاد، خوفاً من الفقر، فإنه هو الرزاق، تكفل برزق الأبناء والآباء على حد سواء.

وقد حصل في هاتين الآيتين إبدال، وتقديم وتأخير، فقال في الأنعام: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾، وقال في الإسراء: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾، وقدّم رزق الأباء على رزق أولادهم في الأنعام، وقدّم رزق الأولاد على رزق آبائهم في الإسراء، فما السر في ذلك؟ يرى السيوطي أن الآية الأولى خطاب للفقراء، فنهاهم عن قتل أولادهم بسبب فقرهم، فحَسُن تقديم رزق الآباء، والثانية خطاب للأغنياء، فنهاهم عن قتل أولادهم؛ خوفاً من فقر يحصل لهم بسبب أولادهم، فحَسُن تقديم رزق الأولاد[1].

وهذا هو رأي الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، يقول: «فأما قوله في سورة الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ فلأن قبله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ أي: من أجل إملاق، وانقطاع مال وزاد، وهذا نهي عن قتلهم مع فقرهم، وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مؤونة غيرهم، فكأنه قال: الذي يدعوكم إليه من حالكم في أنفسكم، ثم في غيركم، لا يجب أن تشفقوا منه فإني أرزقكم وإياهم، وأما الآية الثانية فإنه قال فيها: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾، والإملاق غير واقع، فكأنه قال: خوف الفقر على الأولاد، وكان عقب هذا إزالة الخوف عنهم، ثم عن القاتلين، أي: لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر، فالله يرزقهم وإياكم، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه، وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره، والله أعلم»[2].

وقد نقل أغلب العلماء والمفسرين توجيه الإسكافي، وأن الخطاب في الأنعام كان للفقراء، وكان بسبب الخوف من فقر حاصل وواقع، والخطاب في الإسراء كان للأغنياء، وكان بسبب الخوف من فقر مستقبلي.

١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، **وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾** [فُصِّلَت:٣٦]:

يبين تعالى في هاتين الآيتين علاج نزغ الشيطان، فإذا أصيب العبد بوسوسة ونزغ من الشيطان، فما عليه إلا أن يستعيذ بالله، ويلتجئ إليه، إنه سميع عليم.

وقد ورد قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بالتنكير في سورة الأعراف، وبالتعريف في سورة فصلت، فما التوجيه في ذلك؟ ينقل السيوطي عن ابن جماعة قوله: أن السبب في ذلك هو: أن آية الأعراف نزلت أولاً؛ وآية فصلت نزلت ثانياً، فحسن التعريف، أي هو السميع العليم الذي تقدم ذكره أولاً عند نزوغ الشيطان[3].

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٥).
(٢) درة التنزيل، (١/٣٢٨-٣٣٠).
(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٥). ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (١٨٩).

لكن الإسكافي ذكر في كتابه تفسيرين، أحدهما عند حديثه عن سورة الأعراف، والآخر عند حديثه عن سورة فصلت، فقد ذكر في سورة الأعراف أن تنكير ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في الآية الكريمة جاء موافقاً لفواصل الآيات التي قبلها، فالفواصل التي قبل هذه الآية أفعال جماعة، وأسماء مأخوذة من الأفعال، كقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٩٠]، ﴿يُخْلَقُونَ﴾ [١٩١]، ﴿يَنصُرُونَ﴾ [١٩٧]، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [١٩٨]، ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [١٩٩]، فجاءت فاصلة هذه الآية بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل، وهو النكرة، أما في سورة فصلت فجاء بالتعريف ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن ما قبلها فواصل سلك بها طريق الأسماء، كقوله: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٤]، و﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٣٥].

وذكر في سورة فصلت تفسيراً آخر، فقد نظر إلى سياق الآيات التي قبل الآية محل الشاهد، فجاءت آية فصلت بعد بيان عدم مساواة السيئة بالحسنة، وبعد الترغيب بأمر يشق على الإنسان فعله، وهو أن يدفع السيئة بالحسنة، والغلظة باللين، ثم بين وأكد على أمر مهم، وهو أنه لا يوفق لهذا الأمر إلا مَن صبر على احتمال الأذى، ومَن له حظ عظيم من الأخلاق الإسلامية العالية، فلما كان هذا الأمر شاقاً عظيماً، ناسب أن يأتي قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ موافقاً للسياق، فجاء مؤكداً بالضمير المنفصل، والتعريف، أما آية الأعراف، فلم تسبق بأمور شاقة، فإن ما قبلها قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [١٩٩]، ففيها دعوة إلى حسن الأخلاق، ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عُظمت في سورة فصلت، فاقتصر في الخبر على الأصل، وهو: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)]، ولا تعارض بين التفسيرين، فالأول جاء من خلال النظر إلى الألفاظ وتوافقها، والثاني جاء من خلال النظر إلى السياق والمعنى، وكلاهما معتبر.

١٤- قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١]، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣]:

في هذه الآيات يبين تعالى أصناف الناس، فالصنف الأول هم المنافقون والمنافقات، فهم من جنس واحد، بعضهم من بعض، يأمرون بالكفر والمنكرات، وينهون عن الإيمان والمعروف، والصنف الثاني هم المؤمنون والمؤمنات، وهم صنف واحد، بعضهم أنصار بعض، يأمرون بالإيمان والمعروف، وينهون عن الكفر

(١) ينظر: درة التنزيل، (٣/ ١١٤٥-١١٤٨).

والمنكرات، ويؤدون الصلاة، ويعطون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وينتهون عما نهوا عنه، والصنف الثالث هم الكافرون، وبعضهم كذلك نصير لبعض.

ونلحظ في الآيات اختلافاً في وصف المنافقين، فقال عنهم: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، وقال عن المؤمنين والكافرين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، فما السر في ذلك؟ سبب ذلك –والله أعلم– أن المنافقين لا موالاة بينهم، ولا يوجد دين واحد يجمعهم، بعكس المؤمنين، فهم على دين الإسلام، وإن كانوا من أعراق مختلفة، وكذلك الكفار، فهم على ملة واحدة، ينصر بعضهم بعضاً، يقول السيوطي: «لأن المنافقين ليسوا متناصرين على دين معين، وشريعة ظاهرة، فكان بعضهم يهوداً، وبعضهم مشركين، فقال: ﴿مِّنْ بَعْضٍ﴾، أي في الشك والنفاق، والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام، وكذلك الكفار المعلنون بالكفر، كلهم أعوان بعضهم، ومجتمعون على التناصر، بخلاف المنافقين كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]»[(١)]. وقد ذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) أن سبب ذلك هو: أن نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد الأعمى لمن سبقهم، وبسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، أما المؤمنون فهم متوافقون، لا بسبب الميل والعادة، بل بسبب المشاركة في الاستدلال، والتوفيق والهداية[(٢)].

❁❁❁❁❁

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣/٣٩٥-٣٩٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، (١٦/١٠٠).

المبحث الثاني

شواهد الآيات المشتبهات في كتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار)

يعد تفسير (قطف الأزهار في كشف الأسرار) من أهم كتب السيوطي التي تطرق فيها للآيات المشتبهات، فقد تناول في تفسيره آيات القرآن الكريم بالبيان والتوضيح، وكشف ما فيها من إعجاز وبلاغة، ومن ضمن الملامح البلاغية التي وقف عندها، توجيه الآيات المشتبهات، فكان يقف عند كل آية فيها تشابه مع آية أخرى، فيذكر أقوال العلماء في هذه توجيه هذا التشابه، أو يذكر تعليقاً وتعليلاً من عنده، ولكثرة هذه المواضع، ولمحدودية هذا البحث سأخصص هذا المبحث للشواهد التي نقلها عن غيره ولم يصرح بذلك، أو صرح أن توجيهها من عنده، وسأكتفي بالشواهد التي لم ترد في كتاب (الإتقان)، وسأبين هل سبقه أحد من العلماء إلى التوجيه الذي ذكره؟ أم هو انفراد وسبق من عنده؟

١- قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٩]، **وقولـه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾** [البقرة:٢٨٤]:

جاءت الآية الأولى في سياق بيان علاقة المؤمن مع الكافر، فالمؤمن منهي أن يتخذ الكافر ولياً، يحبه وينصره، فإن كتم ما استقر في قلبه، من موالاة الكافرين ونصرتهم، فإنّ ذلك لا يخفى على الله، فإنه سبحانه يعلم ما في السموات، وما في الأرض.

وفي الآية الثانية يبين تعالى أن له ما في السموات، وما في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، وسيحاسب عباده على ما أظهروه، وما أخفوه، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

والملاحظ في الآية الأولى أنه بدأ بذكر الخفاء ثم الابتداء، وفي الثانية عكس ذلك، فبدأ بالابتداء ثم الخفاء، فما السر في ذلك؟ تطرق السيوطي لهذا الاختلاف، وذكر أنه لم يرَ أحداً من العلماء تعرض لذلك، إلا أنه نقل قولاً لأبي حيان، يذكر فيه أن ذلك الاختلاف من التفنن في الفصاحة[(١)]، يقول السيوطي: «فإن قلت: لم قدم الإخفاء على الابتداء هنا، وعكس في آخر البقرة؟ قلت: لم أرَ من تعرض لذلك، ويمكن أن يقال: لما كانت الآية هنا عقب التحذير من الموالاة والحب، وهما من أعمال القلوب، ناسب الابتداء بالإخفاء، وآية البقرة عقب التحذير من كتم الشهادة، وأداء الشهادة من أعمال اللسان، فناسب الابتداء بالإبداء، وجعل أبو حيان ذلك من باب التفنن، وكذا قوله هناك: **﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾**، وهنا **﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾**»[(٢)].

(١) ينظر: البحر المحيط، (٣/٩٦).

(٢) قطف الأزهار، (١/٥٧٩).

وقد تكلم ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) عن هذا الاختلاف، ونظر إلى سياق الآيات، وذكر بأن من صفات المنافقين إظهار الشيء، وإبطان خلافه، والآية التي سَبقت آية آل عمران فيها نهي عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، وحذر تعالى من ذلك أشد التحذير إلا عند التقية، ثم قال محذراً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [٢٨]، فلما نهاهم عن عمل المنافقين، كان أهم شيء يؤكد عليه بعده هو أنه سبحانه يعلم ما يخفون، كعلمه ما يبدون، أما آية البقرة فلم يجرِ فيها ذكر النفاق، ولا صفة أهله، وإنما سُبقت بذكر بعض الأحكام الشرعية، فتقدم ذكر ما يبدو؛ لأنه خطاب للمؤمنين[١].

والملاحظ أن رأي السيوطي قريب من رأي ابن الزبير، فالمنافقون يؤيدون المؤمنين في الظاهر وأعمال الجوارح، ويخالفونهم في الباطن، وفي أعمال القلوب، كالحب والموالاة، وهذا ما أكد عليه ابن الزبير في رأيه.

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، **وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾** [الأعراف:١٨٩]:

يذكّر تعالى عباده في هاتين الآيتين بأمر مهم، وهو بداية تكوينهم ونشأتهم، فهو الذي خلقهم من نفس واحدة، هي آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها، وهي حواء، ونشر ذريتهما في أنحاء الأرض.

وقد ذكر في سورة النساء قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وفي الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، والسيوطي يرى أن السر البلاغي وراء ذلك هو التفنن[٢].

وقد أورد ابن الزبير (ت٧٠٨هـ) هذا التساؤل في كتابه، وذكر بأن التعبير بـ (خلق) يأتي مطابقاً للمعنى المقصود، وهو الإيجاد من العدم، والجعل يأتي ثانياً بعد الخلق، فالخلق أسبق، أما التعبير بـ (جعل) فيتوقف على موجود مغاير للمجعول، يكون منه المجعول أو عنه، فقد يكون المقصود من الجعل إضفاء هيئة معينة على شيء تم خلقه سابقاً[٣].

ويرى ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) أن آية النساء جاءت في آدم وحواء عليهما السلام، لأن حواء خلقت من آدم، أما آية الأعراف، فقيل: نزلت في قصي، أو غيره من المشركين، ولم تخلق زوجته منه، فقال: (وجعل)، لأن الجعل لا يلزم منه الخلق، فمعناه: جعل من جنسها زوجها.[٤] أما الزركشي (ت٧٩٤هـ) فيرى أن الفعلين (خلق) و(جعل) قد يستعملان استعمال المترادفين، وكل واحد منهما يدل على الآخر[٥].

---

(١) ينظر: ملاك التأويل، (٧٣/١).

(٢) ينظر: قطف الأزهار، (٦٨١/٢).

(٣) ملاك التأويل، (٩٧/١).

(٤) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (١٣٦/١).

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن، (١٣٠/٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣]:

في الآية الأولى يأمر الله الناس بعبادته، وألا يجعلوا له شريكاً يعبد من دونه، وأن يحسنوا إلى الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمحتاجين، والجار القريب والبعيد، والصاحب المرافق، والمسافر الغريب المحتاج، والمماليك، إن الله لا يحب المتكبرين المختالين.

وفي الآية الثانية يذكّر تعالى بني إسرائيل بالعهد الذي أخذه عليهم، بأن يعبدوه وحده، وأن يحسنوا للوالدين، وللأقربين، ولليتامى، وللمحتاجين، وأن يقولوا للناس كلاماً حسناً، وأن يؤدوا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، لكنهم أعرضوا، واستمروا في عنادهم، إلا قليلاً منهم أدوا ما أمرهم الله به.

وقد زيدت الباء في قوله: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ في آية النساء، دون آية البقرة، والسيوطي يعلل ذلك: بأن آية النساء وردت في حق أمة محمد ﷺ، وآية البقرة وردت في حق بني إسرائيل، فزيدت في حق أمة محمد ﷺتأكيداً ومبالغة، لأن الاعتناء بهذه الأمة أكثر من غيرها(١). وقد سبق إلى هذا التعليل ابن جماعة (٧٣٣هـ)(٢)، وأبو حيان (ت٧٤٥هـ)(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام:٥٤]:

في الآية الأولى يأمر تعالى رسوله أن يقول للمشركين: لمن مُلْك السموات والأرض؟ فيأتي الجواب: قل هو لله، الذي كتب على نفسه الرحمة، ليجمعنكم للحساب يوم القيامة، لا ريب ولا شك فيه.

وفي الآية الثانية يخاطب تعالى نبيه ﷺ بأنه إذا جاءه المؤمنين بالآيات، فعليه أن يقول لهم: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، فمن اقترف سوءاً وهو جاهل، ثم تاب من بعده، وأصلح عمله، فإنه تعالى غفور رحيم.

---

(١) ينظر: قطف الأزهار، (٢/٧٠٤).

(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (١/١٣٧).

(٣) ينظر: البحر المحيط، (٣/٦٣١).

يعلل السيوطي سبب زيادة كلمة ﴿رَبُّكُمْ﴾، وزيادة قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في الآية الثانية [الآية: ٥٤]، دون الآية الأولى [الآية: ١٢]، بأن الخطاب في الأولى للكفار، فلم يذكر فيه لفظ الرب، إبعاداً لهم عنه، وفي الآية الثانية الخطاب للمؤمنين، فذكر فيه لفظ الرب مضافاً إليهم، تشريفاً لهم، وإشعاراً بمراعاته لمصالحهم، وتربيتهم، وتأنيساً لهم في الخطاب، وذكر قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقدمه على قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ في الآية الثانية؛ لأن السلام تحية المسلمين، والسلام قبل الكلام، ولما كان الخطاب في الاية الأولى للكفار، لم يذكر السلام، إذ لا سلام على كافر[١]. وقد سبق السيوطي غيره في هذا التوجيه.

٥- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩]، **وقوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١]:

يخبر تعالى في الآية الأولى عن نفسه، فهو الذي أنزل من السحاب ماء، فأخرج به أصنافاً من النبات، فأخرج شجراً أخضر، ثم أخرج من الزرع حباً متراكباً، بعضه فوق بعض، وأخرج من طلع النخل عذوقاً قريبة التناول، وأخرج سبحانه بساتين من العنب، وأخرج الزيتون والرمان الذي يتشابه في ورقه، ويختلف في ثمره وطعمه، ثم أمر تعالى الناس أن ينظروا إلى ثمر هذا النبات إذا أثمر، وإلى نضجه حين ينضج، إن في ذلك لعلامات لقوم يؤمنون ويصدقون بقدرته وعظمته سبحانه.

وفي الآية الثانية يبين تعالى أنه هو الذي أنشأ البساتين والجنات، منها ما هو مبسوط على الأرض من دون ساق، ومنها ما هو مرفوع على ذات ساق، وخلق النخل والزرع، مختلفاً ثمره، وهو الذي خلق الزيتون والرمان، متشابهان في الورق، ومختلفان في الطعم، ثم أمر الناس بالأكل من الثمر إذا أثمر، وإخراج الزكاة المفروضة يوم حصاده، ونهاهم عن الإسراف في الأكل وغيره.

والملاحظ في الآيتين ورود فعل واحد بصيغتين مختلفتين، ففي الآية الأولى جاء بصيغة: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وفي الثانية: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾، فما سر ذلك؟ يجيب السيوطي عن سبب هذا الاختلاف أنه من باب التنوع، والتفنن، والجمع بين اللفظين الجائزين، كما جرت عادة القرآن في استعمال المترادفات[٢].

وأشار الزمخشري (ت٥٣٨هـ) إلى الاشتراك في المعنى بين الصيغتين، يقول: «يقال: اشتبه الشيئان، وتشابها، كقولك استويا، وتساويا، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً»[٣]. ووافقه الرازي (ت٦٠٦هـ)[٤]،

(١) ينظر: قطف الأزهار، (٨٥٤/٢).
(٢) ينظر: المرجع السابق (٩١٧/٢).
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٥٢/٢).
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٨٧/١٣).

وأبو حيان (٧٤٥هـ)[١] على ذلك، وأخذا منه هذا التعليل، أما الكرماني فيرى أن أكثر ما جاء في القرآن من هاتين الكلمتين ورد بلفظ التشابه، وهو الأصل، أما لفظ: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، فمعناه ملتبساً، بدليل قوله بعدها ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[٢].

أما ابن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) فنظر إلى الثقل والخفة بين الألفاظ، وأن ﴿مُتَشَٰبِهٍ﴾ لا فرق بينهما، وقد ورد ﴿مُشْتَبِهًا﴾ على البناء الأخف، ﴿مُتَشَٰبِهٍ﴾ على البناء الأثقل، يقول: «﴿مُشْتَبِهًا﴾ لا فرق بينهما، إلا ما لا يعد فارقاً، إذ الافتعال والتفاعل متقاربان، أصولهما: الشين والباء والهاء، من قوله: (أشبه هذا هذا)، إذا قاربه وماثله، ورد في أولى الآيتين على أخف البناء، وفي الثانية على أثقلهما، رعياً للترتيب المتقرر»[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، **وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾** [الحجر:٨٢]، **وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾** [الشعراء:١٤٩]:

هذه الآيات وردت في سياق قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، حيث ذكّرهم تعالى بنعمة عظيمة، وهي جعلهم خلفاء في الأرض من بعد عاد، ومكّن لهم الأرض الطيبة، يبنون في سهولها قصوراً عظيمة، وينحتون من جبالها بيوتاً أخرى.

وقد حُذف حرف الجر "في" في آية الأعراف، وذُكر في آية الحجر والشعراء، والسيوطي يرى أن السر البلاغي في ذلك هو التفنن[٤]. ولم يتطرق أحد قبله – فيما أعلم- إلى هذا الاختلاف بين هذه الآيات.

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]، **وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾** [الشعراء:١٧٧]:

هاتان الآيتان وردتا في سياق قصة شعيب –عليه السلام- مع قومه، فأخبر تعالى أنه أرسل إلى مدين أخاهم شعيباً، فأمرهم بعبادة الله، وحده لا شريك له، وأن يتقوه ويخافوه، وأمرهم أن يوفوا في الميزان، ولا يبخسوا الناس حقوقهم، ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، فهذا خير لهم إن كانوا مؤمنين ومصدقين.

---

(١) ينظر: البحر المحيط، (٥٩٩/٤).

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، (١١٢/١).

(٣) ملاك التأويل، (١٦٦/١).

(٤) ينظر: قطف الأزهار، (١٠٢٢/٢)

وقد وصف تعالى شعيباً في آية الأعراف بأنه أخاهم، ولم يصفه بذلك في آية الشعراء، مع أنه تعالى وصف الرسل قبله في نفس السورة بكلمة (أخوهم)، فما سر ذلك؟

يذكر السيوطي أن شعيباً أرسل مرتين، مرة إلى مدين، وأخرى إلى أصحاب الأيكة، فمدين قومه، وأصحاب الأيكة ليسوا بقومه، فوصفه تعالى بالأخوة في آية الأعراف؛ لأنها في قوم مدين، ولم يصفه بالأخوة في آية الشعراء؛ لأنها في أصحاب الأيكة[1]. وهذا هو رأي الثعلبي (٤٢٧هـ)، الذي يرى أن عدم وصف شعيب عليه السلام بالأخوة في الشعراء؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين – وهم قومه– قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ لأنه كان منهم[2]. وقد ذهب إلى هذا الرأي كل من: الزمخشري (ت٥٣٨هـ)[3]، والرازي (٦٠٦هـ)[4]، والبيضاوي (٦٨٥هـ)[5]، والنسفي (٧١٠هـ)[6]، وابو حيان (٧٤٥هـ)[7]، وقد ذهب البقاعي (٨٨٥هـ) إلى قريب من هذا الرأي، لكنه ذكر أن أصحاب اليكة كانوا بدواً، وكان شعيب عليه السلام قروياً، ولم يرسل تعالى من نبياً إلا من أهل القرى، يقول: «ولما كانوا أهل بدو، وكان هو عليه السلام قروياً، قال: شعيب، ولم يقل: أخوهم، إشارة إلى أنه لم يرسل نبياً إلا من أهل القرى، تشريفاً لهم؛ لأن البركة والحكمة في الاجتماع، ولذلك نهى النبي ﷺ عن التعرب بعد الهجرة»[8].

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: قطف الأزهار، (١٠٢٨/٢).
(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (١٧٨/٧).
(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٣٣٢/٣).
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٥٢٨/٢٤).
(٥) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (١٤٨/٤).
(٦) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٥٧٩/٢).
(٧) ينظر: البحر المحيط، (١٨٦/٨).
(٨) نظم الدرر في تناسب الايات والسور، البقاعي (٨٥/١٤).

الخاتمة

يحاول هذا البحث أن يكشف عن جهود السيوطي البلاغية في موضوع الآيات المشتبهات، ودراسة منهجه، وتعليقاته، وانفراداته، وعلاقته بالعلماء الذين سبقوه في التأليف في هذا الموضوع، خصوصاً في عدم وجود دراسة خاصة تهتم بمنهج السيوطي في توجيه الآيات المشتبهات، فتدرس تعليلاته، وتناقش تعليقاته وأقواله.

وقد خرج هذا البحث بنتائج عديدة، من أبرزها:

- يعد جلال الدين السيوطي من أهم العلماء الذين تحدثوا عن الآيات المشتبهات، وجمع في حديثه بين التنظير والتطبيق.
- يجمع السيوطي في توجيهه البلاغي للآيات المشتبهات بين النقل عن العلماء السابقين له، ومناقشته لهم، وبين تعليقه على آرائهم، وانفراده بأسرار لم يلمحها من قبله.
- يعد كتاب (الإتقان في علوم القرآن) من أهم الكتب التي تطرقت لموضوع الآيات المشتبهات، وحاولت جمع أشتاته، وذِكْر أهم المصنفات فيه.
- يخصص السيوطي كتابه (قطف الأزهار في كشف الأسرار) في إبراز الفنون البلاغية كلها، حيث يكشف عن إعجازها، ويجليها تجلية واضحة، فلا يكاد يترك في كتابه آية فيها ملمح بياني، أو فن بديعي، إلا ويشير إليه، ويكشف عن أسراره البلاغية.

ومن أهم التوصيات:

- الكشف عن جهود السيوطي البلاغية في كتبه المتعددة.
- انفرادات السيوطي البلاغية في مؤلفاته بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة.
- تفسير (قطف الأزهار في كشف الأسرار) مليء بالأسرار البلاغية، والتعليقات البيانية، وحبذا لو التفت الباحثون إليه.

وفي الختام أحمد الله تعالى أن يسر إتمام هذا البحث، وأسأله التوفيق في جميع الأمور، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ناصر الدين عبدالله بن عمر، تحقيق: محمد المرعشلي، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني: جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت: دار الكتب العليمة، ١٤٢٤هـ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان: محمد بن يوسف، تحقيق: صدقي محمد جميل، (د.ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان (أسرار التكرار في القرآن)، الكرماني: محمود بن حمزة بن نصر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. (د.ط) (د.م)، دار الفضيلة، (د.ت).
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦هـ.
- التحبير في علم التفسير، السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر، تحقيق: د. فتحي عبدالقادر فريد، ط١، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٢هـ.
- درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي: محمد بن عبد الله الأصبهاني، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، ١٤٢٢ هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبدالله، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- علوم القرآن بين البرهان والإتقان، حيدر: حازم سعيد، (د.ط)، المدينة المنورة: مكتبة دار الزمان، ١٤٢٠هـ.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.
- الفهرست، ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق، تحقيق: إبراهيم رمضان، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٧هـ.
- قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تحقيق: د. أحمد بن محمد الحمادي، ط١، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٤هـ.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري: محمود بن عمرو، ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد الله، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، ط١، المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٠هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط١، بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩هـ.
- معاني القرآن، الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط١، مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.
- ملاك التأويل (القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل)، الغرناطي: أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: إبراهيم بن عمر، (د.ط) القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

Bibliography

- al-Itqān fī □ulūm al-Qur□ān ،al-Suyūṭī : Jalāl al-Dīn Abd al-Raḥmān ibn Abī Bakr ،taḥqīq : Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm ،(D. Ṭ) ،al-Qāhirah : al-Hay□ah al-Miṣrīyah al-□Āmmah lil-Kitāb ،1394h / 1974m.
- Anwār al-tanzīl wa-asrār al-ta□wīl ،al-Bayḍāwī : Nāṣir al-Dīn Allāh ibn Umar ،taḥqīq: Muḥammad al-Mar□ashlī ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār Iḥyā□ al-Turāth al-□Arabī ،1418h.
- al-Īḍāḥ fī ulūm al-balāghah ،al-Qazwīnī : Jalāl al-Dīn Muḥammad ibn Abd-al-Raḥmān, taḥqīq : Ibrāhīm Shams al-Dīn ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār al-Kutub allymh ،1424h.
- al-Baḥr al-muḥīṭ fī al-tafsīr ،Abū Ḥayyān : Muḥammad ibn Yūsuf ،taḥqīq : Ṣidqī Muḥammad Jamīl ،(D. Ṭ) ،Bayrūt : Dār al-Fikr ،1420h.
- al-burhān fī tawjīh mutashābih al-Qur□ān li-mā fīhi min al-Ḥujjah wa-al-bayān (Asrār al-Takrār fī al-Qur□ān) ،al-Kirmānī : Maḥmūd ibn Ḥamzah ibn Naṣr ،taḥqīq : Abd al-Qādir Aḥmad Aṭā. (D. Ṭ) (D. M) ،Dār al-Faḍīlah ،(D. t).
- al-burhān fī ulūm al-Qur□ān ،al-Zarkashī : Badr al-Dīn Muḥammad ibn Abd Allāh ،taḥqīq : Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm ،Ṭ1 ،al-Qāhirah : Dār Iḥyā al-Kutub al-Arabīyah : Īsá al-Bābī al-Ḥalabī wa-shurakā□ih ،1376h.
- al-Taḥbīr fī ilm al-tafsīr ،al-Suyūṭī : Abd-al-Raḥmān ibn Abī Bakr ،taḥqīq : D. Fatḥī Abd-al-Qādir Farīd ،Ṭ1 ،al-Riyāḍ : Dār al-Ulūm ،1402h.
- Durrat al-tanzīl wa-ghurrat al-ta□wīl ،al-Iskāfī : Muḥammad ibn Abd Allāh al-Aṣbahānī, dirāsah wa-taḥqīq wa-talīq : D / Muḥammad Muṣṭafá Āydīn ،Ṭ1 ،Makkah al-Mukarramah: Jāmiat Umm al-Qurá ،Mahad al-Buḥūth al-Ilmīyah ،1422 h.
- Rūḥ al-maānī fī tafsīr al-Qur□ān al-Aẓīm wa-al-Sab al-mathānī ،al-Alūsī : Shihāb al-Dīn Maḥmūd ibn Allāh ،taḥqīq : Alī Abd al-Bārī Aṭīyah ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār al-Kutub al-Ilmīyah, 1415h.
- ulūm al-Qur□ān bayna al-burhān wa-al-itqān ،Ḥaydar : Ḥāzim Saīd ،(D. Ṭ) ،al-Madīnah al-Munawwarah : Maktabat Dār al-Zamān ،1420h.
- gharā□ib al-Qur□ān wa-raghā□ib al-Furqān ،al-Nīsābūrī : Niẓām al-Dīn al-Ḥasan ibn Muḥammad ،taḥqīq : al-Shaykh Zakarīyā Umayrāt ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār al-Kutub al-Ilmīyah, 1416h.
- al-Fihrist ،Ibn al-Nadīm : Abū al-Faraj Muḥammad ibn Isḥāq ibn Muḥammad al-Warrāq, taḥqīq : Ibrāhīm Ramaḍān ،ṭ2 ،Bayrūt : Dār al-Marifah ،1417h.
- Qaṭf al-azhār fī Kashf al-asrār ،al-Suyūṭī : Jalāl al-Dīn Abd-al-Raḥmān ibn Abī Bakr ،taḥqīq : D. Aḥmad ibn Muḥammad al-Ḥammādī ،Ṭ1 ،Qaṭar : Wizārat al-Awqāf wa-al-Shu□ūn al-Islāmīyah ،1414h.
- al-Kashshāf an ḥaqā□iq ghawāmiḍ al-tanzīl ،al-Zamakhsharī : Maḥmūd ibn Amr ،ṭ3 ،Bayrūt : Dār al-Kitāb al-Arabī ،1407h.
- Kashf al-maānī fī al-mutashābih min al-mathānī ،Ibn Jamāat : Muḥammad ibn Ibrāhīm ibn Sad Allāh ،taḥqīq : D. Abd al-Jawwād Khalaf ،Ṭ1 ،al-Manṣūrah : Dār al-Wafā□ ،1410h.
- al-kashf wa-al-bayān an tafsīr al-Qur□ān ،al-Thalabī : Aḥmad ibn Muḥammad ibn Ibrāhīm, taḥqīq : al-Imām Abī Muḥammad ibn Āshūr ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār Iḥyā□ al-Turāth al-Arabī, 1422h.
- Madārik al-tanzīl wa-ḥaqā□iq al-ta□wīl ،al-Nasafī : Abd Allāh ibn Aḥmad ibn Maḥmūd, taḥqīq : Yūsuf Alī Budaywī ،Ṭ1 ،Bayrūt : Dār al-Kalim al-Ṭayyib ،1419h.
- maānī al-Qur□ān ،al-Farrā□ : Yaḥyá ibn Ziyād ibn Abd Allāh ،taḥqīq : Aḥmad Yūsuf alnjāty / Muḥammad Alī al-Najjār ،Abd al-Fattāḥ Ismāīl al-Shalabī ،Ṭ1 ،Miṣr : Dār al-Miṣrīyah lil-Ta□līf wa-al-Tarjamah ،(D. t).
- mutarak alqrān fī Ijāz al-Qurān ،al-Suyūṭī : Jalāl al-Dīn Abd-al-Raḥmān ibn Abī Bakr, Ṭ1 ، Bayrūt : Dār al-Kutub al-Ilmīyah ،1408h.
- Mafātīḥ al-ghayb (al-tafsīr al-kabīr) ،al-Rāzī : Fakhr al-Dīn Muḥammad ibn Umar, ṭ3, Bayrūt: Dār Iḥyā al-Turāth ،1420h.

- Malāk al-tawīl (al-qāṭi bdhwy al-ilḥād wa-al-taṭīl fī tawjīh al-mutashābih al-lafẓ min āy al-tanzīl) ،al-Gharnāṭī : Aḥmad ibn Ibrāhīm ibn al-Zubayr ،taḥqīq : Saīd al-Falāḥ ،Ṭ1 ،Bayrūt: Dār al-Gharb al-Islāmī ،1403h.
- naẓm al-Durar fī tanāsub al-āyāt wa-al-suwar ،al-Biqāī : Ibrāhīm ibn Umar, (D. Ṭ) al-Qāhirah: Dār al-Kitāb al-Islāmī ،(D. t).